

صور من الخلق النبوى وأثرها فى القلوب

ظهير أحمد بشير – ماله

فى اعتناق الناس بالاسلام بسرعة مذهشة كان من الدواعى الأساسية هو خلق رسول الله ﷺ الذى قرب النفوس الى الاسلام، وحببه إلى القلوب، وصيره بحيث تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة القوم بعد الإباء، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا. ولا شك أن كمال نفسه ومكارم أخلاقه كانت سر نجاح الدعوة، و سر حكم على القلوب. يكشف عن ذاك قول خديجة رضى الله عنها للرسول ﷺ بعد نزول الوحي الأول فى غار حراء، فهى تقول: كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق . (١)

كان الرسول ﷺ قد بلغ من العدل، والعفة، والصدق، والأمانة، مبلغا لم يكن أحد أرفع منه، اعترف له به بذلك أقرباؤه وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته بالأمين، ويتحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (٦: ٣٣) .

خديجة تتأثر بخلقها قبل البعثة:

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها، تضار بهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرجت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له

ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام. ولما رجع إلى مكة ورأت خديجة فى مالها من الأمانة، والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين وجدت ضالتها المنشورة. وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية وهذه ذهبت إليه ﷺ فتفتحه أن يتزوج خديجة، فرضى بذلك، وكلم عمه فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوها إليه وعلى إثر ذلك تمّ الزوج.

عظيم الروم يتمنى لقاءه:

بعث رسول الله ﷺ بكتاب مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم فسأل عنه ﷺ أبا سفيان أسئلة منها: فهل كنم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا، ومنها: قال هرقل: ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم: ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فلما سمع هرقل مقالته قال: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. (١)

الخلق العظيم الذى لا يدرك غوره:

عن رجل من بنى سواد قال: سألت عائشة فقلت أخبريني يا أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ فقالت أما تقرأ القرآن ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. (٢)

والخلق العظيم يتجلى من قصة الطائف الدعوية وهى كما روى البخارى تفصيل هذه القصة بسنده عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما

(١) المصدر السابق: ١ / ٤

(٢) صحيح، انظر تيسير العلى القدير لاختصار ابن كثير رقم الحديث: ٤٨٧

لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها رجل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم على ثم قال: يا محمد، ذلك فما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين - أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيعان - قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلاهم من يعبد الله عز وجل وحده ولا يشرك به شيئا.

قال الشيخ صفى الرحمن المباكفوري رحمه الله بعد سرد هذا الحديث: "وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم الذى لا يدرك غوره". (١)

الفضل الذى شهد به الأعداء :

عند الرجوع من غزوة نزل رسول الله ﷺ تحت سمرة وعلق بها سيف ونام وجاء رجل من المشركين اسمه غورث (٢) بن الحارث وأخذ السيف وسله من غمده قائلاً: من يمنعك منى؟ قال رسول الله ﷺ: الله! فسقط السيف من يد المشرك فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال للمشرك: من يمنعك منى؟ فقال المشرك: كن خير آخذاً! فقال الرسول: أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال المشرك: لا، ولكنى أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى الرسول ﷺ سبيله فأتى المشرك أصحابه فقال: جئكم من عند خير الناس.

الخدام والأسير يعتنقان الإسلام :

كان يعود من مرض من أصحابه، وعاد غلاما كان يخدمه من أهل الكتاب وعاد

(١) الرحيق المختوم: ص ١٢٧

(٢) رحمة للعالمين للعلامة محمد سليمان المنصورفوري: ١ / ٢٦٧

عمه وهو مشرك وعرض عليهما الإسلام فأسلم اليهودى، (١) ولم يسلم عمه. وأسر ثمامة بن أثال سيد بنى حنيفة، فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم. (٢)

ذلك لما رأى الخادم فى الرسول ﷺ من خلال عذبة، وسلوكيات كريمة، يتجلى ذلك من حديث أنس رضى الله عنه أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا شيء لم أفعله ألا فعلته؟ وكما رآها الأسير مما لا يرجى من مناوئيه ومخالفه عادة.

نفحات إيمانية :

كان فتح مكة فتحاً أعظم استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجا، وكان خلق الرسول ﷺ "لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء" فبدأ يدخل الناس فى دين الله أفواجا وتتابع الوفود إلى المدينة فى سنتى تسع وعشر. حتى ان الجيش الاسلامى الذى كان قوامه عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الفتح، إذ هو يزخر فى ثلاثين ألف مقاتل فى غزوة تبوك، قبل أن يمضى على فتح مكة عام كامل، ثم نرى فى حجة الوداع من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم - حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق وترتج له الأرجاء.

هذا غيض من فيض من كمال خلقه ﷺ وإلا فهناك نماذج و نماذج من الحياء والكرم، والشجاعة، والصفح والحلم، والرفقة، والعدل والصبر، والصدق والعفة والزهد، بما لا يحيط بوصفه البيان. وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفتانوا فى حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره.

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



(١) زاد المعاد لابن القيم : ١ / ٤٩٤

(٢) زاد المعاد : ٣ / ١١٠